التناص في مرثية الزاوية الدلائية للحسن اليوسي

أ.الزهرة بوطالبي أ.د أحمد حاجي
مخبر اللسانيات النصية و تحليل الخطاب
جامعة قاصدي مرباح ورقلة-الجزائر-

الملخص :

حقق الحسن اليوسي من خلال مرثية الدلاء كفاءة أسلوبية تناصية تقاطعت فيها المواد البنائية الخام المشكّلة لذاكرته المعرفية الأدبية و الدينية و الصوفية ، و أنتج نصا مغايرا على متمفصل الأساليب و الألفاظ و التراكيب تمكننا من خلال استنطاقها و اختزالها من تعرية مقصديته المؤسسة على فعل الرثاء مداراة.

الكلمات المفتاحية: التناص- الزاوية الدلائية- المداراة- الاختزال-المغايرة.

Résumé:

Dans son ouvrage élégiaque,destiné au Dila,et qui dépeint avec douceur sa pensée rebelle et ouverte, El Hassan ElYoussi et avec des pas fermes et cadencés,a pu atteindre incontestablement son idéal,en s'acquérant une compérence textuelle de style,pour le moins dire,unique son genre et pour l'aquelle,tout un fagot de mavières brutes de construction se sont mobilisées et se sont communiquées les uns aux autres pour produire,par la façon la plus adéquate ,un texte de type nouveau et singulier que ce soit sur le plan des styles,des termes ou des structures,évoquant,par là,et tout au long du poème,une mémoire cognitive riche et ouvérte,de son auteur,sur la littérature,la religion et le soufisme.

Nous avons pu enfin et à travers l'interrogation et la simplification de cet écrit inédit de déceler et de découvrir humblement l'intention du poète qui s'est basée sur l'éloge funèbre des Dilaites.

Mots clés :intertextualitè- Zaouia de Dila- dissimulant- la simplification-adversité.

تمهيد:

تعددت مفاهيم التناص عند الباحثين الذي عرفته جوليا كريستيفا قائلة : "إنه أحد مميزات النص الأساسية، و التي تحيل على نصوص أخرى سابقة أو معاصرة لها"[1] أي أنه سمة أسلوبية نصية يتداخل و يتعالق فيها النص بنصوص أخرى تغايره سواء أكانت سابقة له أو معاصرة.

و التناص يكون على مستويات عدة قد تتعدى المضمون إلى الشكل «فالتناص لا يكون بالمضمون فقط، و إنما يكون بالمفردات، و التراكيب، و البناء، و الهيكل العام، و الإيقاع والصورة، و الرمز»[2] و استنادا إلى التفاعلات القائمة بين النصوص يصبح مبدع النص الجديد خالقا لنص جديد قديم ممتد مغاير له خصوصية صاحبه و واقعه «يتحول المبدع الثاني منتجا ثانيا للنص الأول، و بإعادة إنتاجه يصبح نصا جديدا لا ينتمي إلى الشفرة الأولى إلا باعتبارها المادة الأولية الناجزة»[3].

و هنا يأتي دور القارئ الذي يحاول فك هذه الشفرة، و يبحث عن مدى تعالقها بسابقتها مستعينا في ذلك برصيده الفكري و الأدبي يقول محمد عزام: «و تظل عملية القراءة هي عملية أخذ و عطاء من قبل المخزون الأدبي و الثقافي للقارئ، هكذا يتفاعل النصان الغائب و الماثل من أجل إنتاج (نص جديد) هو أيضا تناص مركب من نصوص عديدة متداخلة».[4]

و تبقى دراسة التناص مرتبطة بمهارات القارئ، و الميكانيزمات التي يتسلح بها و التي تمكنه من الاستخراج و الاكتشاف، و يبقى «النص الجيد قادر دائما على العطاء المستمر لقراءات متعددة»[5].

و بعد قراءة المرثية الدلائية، و الوقوف عند مصادر اليوسي المعرفية ، سنحاول القبض على البنية النصية في خطابه الشعري، من خلال التساؤلات الآتية:

ماهي أشكال التناص عند اليوسي؟ و إلى أي مدى عكس ثقافته و شخصيته و واقعه ؟ وهل كان له بصمة فيه ؟

أولا : التناص الديني:

استطاع اليوسي أن يجمع رصيدا أدبيا حافلا من خلال نشأته الدينية و العلمية قبل الزاوية وبعدها. و قد لاحظنا انفتاح المرثية على هذا الرصيد لاسيما القرآن الكريم؛ كلام اللّه المعجز بألفاظه و معانيه الذي استقى منه العرب البلاغة و الفصاحة، فكان لزاما أن يتبدّى في منتوجهم اقتباسا و تضمينا. و اليوسي أحدهم بحيث برع في استدعاء هذا المعين في المرثية بما يلائم مقاصده، و حالته النفسية.

اقتبس اليوسي صيغة (ألم تر) المكررة في القرآن الكريم الدالة على قدرته جل و علا، وآياته الكونية، و لعلنا سنتخيّر ما يناسب المقام الدلالي في قوله تعالى في سورة الفيل: [**أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**] [6] التي نقلت مشهد هلاك أبرهة بطيور من البحر

محملة بالحجارة لما عوّل على هدم الكعبة؛ فكانت خارقة من خوارقه تعالى في قهر المتجبرين.

أفاد الشاعر من هذا المعنى للتأكيد على حقيقة الدهر قائلا:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ حُبْلَى أَنِيَةٌ ولَادَتُهَا يَوْمًا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تُدْرَى[7]

نلاحظ في كلا النصين تقرير على حقيقة ما؛ الأولى ربانية واقعية، و الثانية مجازية إنسانية مغايرة هذه الأخيرة التي توسل صاحبها بالأسلوب الاستفهامي، و صيّره خادما لدلالته؛ إذ شبه الدهر بالحبلى تحمل مفاجأة، حتى يستحضر المتلقي صورتها أوشكت أن تضع، ليعتريه، و يعترينا سؤال بديهي: هل سيتم الحمل على خير ؟ و إن كان: هل ستنجب أنثى أم ذكر ؟

لكننا سنلقى الجواب في البيت الموالي:

فَمِنْ مِنَحٍ تسْلي وَمِنْ مِحَنٍ تُسِي نَتَائِجُهَا صُغْرَى عَلَى المَرْءِ أَوْ كُبْرَى[8]

إذا استعنا بتفسير الأحلام الذي أتقنه اليوسي في حياته، وجدنا بأن الأنثى في الرؤيا دنيا و خير يزداد بزيادة جمالها، أما الذكر فشرّ، حينها نستنتج أنه أراد إفراغ شحنة الغضب و الكره على الدهر الإنسان السالب الذي يتأرجح بين اليسر و العسر، لاسيما أنه في أيام عسيرة.

و حتى يؤكد على تداول الأيام –كما قلنا- و تأرجحها بين الحلاوة و المرارة اقتبس من قوله تعالى: [**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً**] [9]في قوله :

مَلُولٌ فَمَا بَاقٍ عَلَى عَهْدِ خُلَّةٍ وَلَا مُسْتَدِيمٍ فِيكَ يُسْرَا وَلَا عُسْرَا[10]

استدعى اليوسي من القصص القرآني قصة سيدنا يوسف عليه السلام في قوله تعالى : [**وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ**] [11] و قوله : [**يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ**][12] للدلالة على أن سيدنا يوسف بيع بثمن زهيد لجهل السيّارة بقدره كما قال ابن كثير : «هذا الغلام الذي يدخلها في صورة أسير رقيق، ثم بعد هذا يملّكه (اللّه عز جل) أزمّة الأمور»[13] و ربما سيحيلنا هذا إلى قصة عكسية؛ نمرود الجبار الذي أذلته بعوضة أضعف خلق اللّه عز و جل.

أفاد اليوسي من القصة في باب الحكمة و الوعظ لتصوير حال المرء عند التفريط في الأمور من خلال صورة الناقة. قال:

وَمَنْ يشر بخسا نُوقَهُ وَهْيَ شوَّل عِجَافًا تَمَنَّاهَا لَدَى غَيْرِهِ شَكْرَى[14]

على أننا هنا سنجد تعالقا بذكره (الناقة) مع مرجعيتين اثنتين:

أولهما: تتعلق بالموروث المعرفي؛ فالجمل أحد مكونات قصص كليلة و دمنة المحفورة في ذهنية اليوسي، و الرامزة للرعية المغلوب على أمرها.

و ثانيهما: الصورة تلامس الحقيقة؛ فالحسن بن محمد الوزان يحكي أن التجار الأفارقة الذين ينتقلون إلى أثيوبيا، حينما يعودون تكون جمالهم هزيلة، و ظهورهم مصدر ألم تباع

حينئذ بدارهم معدودة إلى أهل الصحراء الذين يقومون بإصلاح حالها ؛ لأن المطلوب جمال سمان تتحمل المشاق. (15)

لو عدنا إلى الألفاظ التي اقتبسها اليوسي من قصة سيدنا يوسف عليه السلام سنجد المعادلة التالية: (يشر – بخسا) بداية الأسر. أما (عجافا) فبوابة المجد .كيف ذلك ؟ لأن بعد تفسير النبي عليه السلام لرؤيا العزيز تغيرت و تبدلت حاله، و اعتلى أعلى المراتب في مصر.

إذن الألفاظ المقتبسة بالنسبة لليوسي ترميز للتغير من حال إلى حال أحسن، و لتأكيد هذا نربط كلمة (عجافا) بـ (شكرى) سنتحصل على : أيام عصيبة يتمناها جميلة مستقبلا. لكن كيف نفسر هذا سيكولوجيا ؟

حسنا، لا شك أن ولاء اليوسي للدلائيين، و إخلاصه لهم سيجعله يطمح أن يعلو نجم شيخهم الأسير، ليكتسح الساحة من جديد، و منه فلا ضير أن يكون أيضا ضربا من رثاء النفس؛ فاليوسي العالم لم يعرف أهل فاس قدره، و لم يعاملوه كما يستحق، قال:

مَا أَنْصَفَتْ فَاسُ وَلَا أَعْلَامُهَا عِلْمِي وَلَا عَرَفُوا جَلَالَـــةَ مَنْصِبِي

لَوْ أَنْصَفُوا لَصَبوا إليَّ كَمَا صَبَا رَاعِي السِنِينَ إِلَى الغَمَامِ الصيِّبِ(16)

و نستطيع تأكيد ما قلنا مستعينين بما ورد في الصفوة؛ اليوسي كان يتمنى أن تتحقق رؤيا والده؛ عين الماء التي فسرت بنبوغه، و دعوة أستاذه ابن ناصر الدرعي أن يكون شمسا تنير درب الآخرين.

وقف اليوسي واعظا مضمنا كلامه ما جاء في سورة يوسف- أيضا -قال تعالى: [**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**](17) منتفعا من دلالة الآية قائلا:

فَمَنْ لِلهَوَى أَلْقَى القِيَادَ فَقَدْ هَوَى وَلَـوْ أَنَّـهُ فِـي المَجْـدِ قَـدْ وَطِـئَ النَّسْرَا(18)

من الواضح أن منفعية اليوسي هنا متعلقة بالمعنى؛ فالهوى يعني ميل النفس، و لأن النفس أمارة بالسوء ستوصل صاحبها حتما إلى الهاوية، و ذاك ما يستوجب عصيانها ما عبر عنه اليوسي في البيت السابق:

وَعَاصِ الهَوَى إنَّ الهَوَانَ مَعَ الهَوَى وَفِـي الصَّـبْرِ عِـزٌّ فَاسْتَعِـذْهُ وَلَـوْ صِبْرَا(19)

و يظل القرآن الكريم هو مورد اليوسي الأساس في الوعظ و الإرشاد، و الدعوة إلى التقوى التي تضمن الفرج العميم في قوله: [**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**](20).

لقد اختلس أسلوب الشرط من الآية الذي يجعل التقوى شرطا للوصول ، و زينه بتصدير أفضى إلى جمال إيقاعي، و تأكيد دلالي في قوله:

وَمَنْ يَدَّخِرِ تَقْوَى الإِلَهِ وَذِكْرَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ يحْمَدُ السَّعْيَ وَ الذُخْرَا(21)

تنوعت اقتباسات اليوسي في المجال الوعظي لتطول الحديث الشريف؛ عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما قال : "كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال : يا غلام ! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك و استعن بالله و اعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك و إن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام و جفت الصحف"[22] و ذلك في قوله:

وَلَا تَجْعَلَنْ فِي غَيْرِ مَوْلَاكَ هِمَّةً فَمِنْهُ تَرَى لَوْ تَعْلَمَ النَّفْعَ وَالضُّرَّا[23]

اقتبس اليوسي من الحديث الشريف مشتقا مصدري (النفع، الضر) من الأفعال (ينفع، يضر)، و مستعيرا الطباق بينهما مفندا بذلك كل المزاعم التي لا تحسن الظن بالله عز وجل، و ترى الضرر من غيره، و مؤكدا أن موازين الأمور بيده عز و جل؛ فهو النافع و هو النافع.

يقول جل و علا في محكم تنزيله [**وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**][24] فكم من الأمور التي نحسبها خير و هي شر والعكس، و لا يعلم تصريفها إلا علاّم الغيوب.

ختاما: سجلنا تعالقا و تداخلا بين نص اليوسي و الموروث الديني (القرآن و الحديث) الذي ساعدنا على تعرية نفسيته، و القبض على مقاصده في رثائه لحال شيخ الدلاء الأسير الذي أزعج مع أهليه إلى تلمسان، و رثائه لنفسه.

-اختلاس التراكيب من القرآن الكريم كالشرط، و اقتباس الألفاظ من قصصه مقتطعا ببراعة ما يخدم مقاصده.

-قدرته على إشراك المتلقي في تصوير ما يجنح إليه من معاني مقتبسة.

-تكرار صورة الحمل ضمن مقتبساته؛ مرة مجازية مشخصة للدهر للدلالة على ما يحمله من مفاجآت سارة و محزنة. و توصلنا إلى سياسته في ربط السابق باللاحق، موظفا تفسير الرؤى و الأحلام، و مرة نسب الحمل الحقيقي للناقة أوصلنا إلى تعالق ثلاثي مع الواقع، و الرصيد الأدبي، و القرآن الكريم تزاحمت في ذهنية اليوسي، و كشفت عن أمانيه في تغير الأحوال و تبدلها.

ثانيا:التناص الأدبي

يتميز اليوسي بشخصية أدبية فذة، و ذاكرة تتسع لعديد الدواوين الشعرية القديمة حدث تلاقحا بينهما فأنجبت نصا يوسيا متميزا.

من العصر الجاهلي: بداية سجلنا تناصا في باب الحكم بين مرثية الدلاء و معلقة زهير بن أبي سلمى؛ إذ تآلفا إيقاعيا في ركوب البحر الطويل، و بنائيا من خلال أسلوب الشرط الذي تكرر في نهاية النصين.

إذن شكل الشرط ظاهرة أسلوبية تكررت فيه الأداة (من) مصدرة بجمل فعلية مضارعة تدل على تجدد هذه الأفعال مرة بعد مرة ،و تكرارها جيل بعد جيل[25].

و طلبا لتفصيل حيثيات الظاهرة نقدم الجدول الآتي:

أسلوب الشرط	عدد الأبيات	عدد المرات
زهير بن أبي سلمى	09	13
اليوسي	22	23

نستنتج أن عدد الأبيات المتضمنة (من) الشرطية عند اليوسي أكثر منها عند زهير، تساوت تقريبا في ورودها عند الأول الذي عادل في توزيعها على الأبيات بمعدل (من) في كل بيت، عدا بيت واحد وردت (مرتين).

أما زهير لا يسجل تناسبا بين عدد الأبيات، و مرات ورودها؛ إذ هناك أربعة (04) أبيات تكررت فيها (من) مرتين، مقابل اليوسي الذي يفرد بيتا لـ (من) و جملتها و جوابها. أي أن هناك مغايرة عند اليوسي في اقتباس أسلوب الشرط من زهير.

على أننا وجدنا تداخلا بين مجموع الحكم في قول زهير:

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ يَفْرِهِ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمُ يُشْتَمِ[26]

و قول اليوسي :

وَمَنْ يَصْطَنِعْ عُرْفًا إِلَى غَيْرِ أَهلِهِ فَلَيْسَ بِلَاقٍ مِنْ جَزَاءٍ وَلَا شُكْرَا[27]

فكلاهما يتناول تقديم المعروف؛ دعا زهير إلى إتمامه مرفوقا بالحذر من الإساءة، و حذر اليوسي من تقديمه لغير أهله اتقاء لشرهم، مستثمرا معنى (من لا يتق الشتم يشتم) في بيت آخر مستقل يقول:

وَمَنْ لَا يُجَنِّبْ قَوْلَهُ دَنَسَ الخَنَا فَلَا يَمْتَعِضْ يَوْمًا إِذَا سَمِعَ الهُجْرَا[28]

إن التداخل بين النصين أساسه خروج كلا الشاعرين من حرب؛ داحس و غبراء، والحرب الدلائية. مدح زهير في معلقته من أحسنوا، بامقابل مدح اليوسي –ضمنيا- أيضا من أحسنوا. و لكن إذا كان مصدر الحكم الزهيرية الخبرة الحياتية، و الحربية. فإن الحكم اليوسية أضافت إلى ما امتصته منها مصادر معرفية متنوعة مغايرة أولها الدينية، والأدبية...

و من الجاهلية أيضا تعالق مطلع اليوسي و مطالع الخنساء، و غيرها من الباكين، ممن يسأل دموعه أن تنذرف في مقام الفقد و لا تجمد.

ها هي الخنساء تبكي أخاها صخرا قائلة :

أَعَيْنِيَّ جُودَا وَلَا تَجْمُدَا أَلَا تَبْكِيَانِ لِصَخْرِ النَّدَى[29]

مقابل اليوسي الذي قال:

أُكَلِّفُ جَفْنَ العَيْنِ أَنْ يَنْثُرَ الدُّرَا فَيَأْبَى وَيَعْتَاضُ العَقِيقَ بِهَا جَمْرَا[30]

نلاحظ تقاطع البيتين في مساءلة العيون، بيد أننا لن نطيل المناولة في هذا المنحى لأن النص «لا يقدم كل ما في جعبته على سواد الصفحة، و إنما على المتلقي أن يلجأ أحيانا كثيرة إلى القيام بعمليات استدلالية بسيطة»[31]

و من خلال استنطاق المطلع وجدنا تعالقا مع قول المتنبي راكبا البحر الطويل:

يُكَلِّفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الجَيْشَ هَمَّـــه وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الجُيُوشُ الخَضَارِمُ[32]

نَثَرْتَـهُم فَوْقَ الأَحَيْـــــــدِبِ نثرة كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ العَرُوسِ الدَّرَاهِم[33]

و نستطيع تبين التناص من خلال المخطط الآتي:

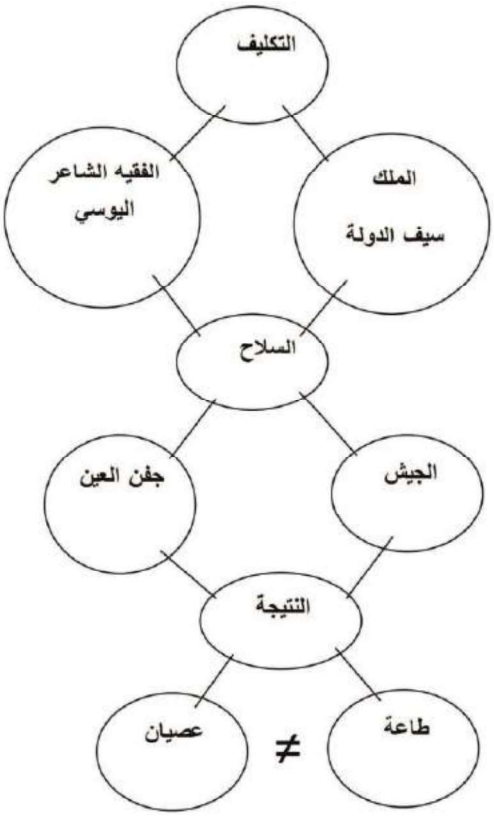

نلاحظ أن سيف الدولة يكلف الجيش فوق طاقته لأنه سلاحه و في ذلك يقول المتنبي:

يَهُزُّ الجَيْشَ حَوْلَكَ جَانِبَيهِ كَمَا هَزَّتْ جَنَاحَيْهَا العقَابُ[34]

كذلك يكلف اليوسي جفن عينيه بحمل ينوء بالحامل، و أكيد تكليف الملك لا يشاكل تكليف الشاعر الفقيه. فكانت النتيجة طاعة مقابل عصيان.

إذن نميز تعالقا إيقاعيا و لفظيا يفضي إلى صورة مغايرة؛ صيّر المتنبي النصر في المعركة عروسا تنثر حولها الدراهم رغم مأساوية الحدث بالنسبة للآخر، مستدعيا صورة بصرية سابقة تتعلق بعادة قديمة، في حين صيّر اليوسي البكاء على الزاوية نثرا للدرر استدعاء للشجرة الخضرا* و هي صورة بصرية مخزونة في ذاكرته منذ أمد.

و منه جاءت التباين في دلالة الصورة (نثر الدرر) عند اليوسي هزيمة و انكسار، و(نثر الدرر) عند المتنبي فرح و انتصار.

استدعى اليوسي بيت أبي فراس الحمداني يعزي امرأة توالت عليها النكبات و المصائب قائلا:

أَلَا فَاصْبِرِي لِخُطُوبِ الزَّمَانِ وَكُونِي عَلَى خَطْبِهِ صَابِرِه[35]

إن أبا فراس ينصح المرأة متوسلا بأسلوب الأمر أن تصبر، و ميزان الآمر و المأمور هنا متوازي، أما اليوسي فعبر عما مر به من ملمات من خلال حوار داخلي كان لعقله فيه سلطان على فؤاده انتهى بالعصيان و التمنع في قوله:

صَبَرْتُ فُؤَادِي لِلْخُطُوبِ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ رَشْقُهَا حَتَّى تَقَضَّى فَلَا صَبْرَا[36]

و منه نسجل تآلفا: كلا النصين شكّل في نصه حوارية سببها توالي النكبات ؛ اقتبس اليوسي الألفاظ و التصدير، أما المغايرة فتمثلت في (أمر+اسم فاعل) مقابل (فعل ماضي+مصدر) أي (اصبري – صابرة) و (صبرت-صبرا)، إضافة إلى أن حوار اليوسي انتهى بنتيجة (العصيان) عكس حوار أبي فراس.

كما حدث تقاطع بين اليوسي و أبي العلاء المعري في تخير البحر الطويل، و توظيف أسلوب الشرط، و التصوير في الكناية عن الإزدراء و الاحتقار.

قال أبو العلاء المعري:

إِذَا أَنْتَ أَعْطَيْتَ السَّعَادَةَ لَمْ تُنَلْ وَإِنْ نَظَرتْ شَزْرًا إِلَيْكَ القَبَائِلُ[37]

أما اليوسي يقول :

وَإِنْ بَصَرُوا بِالمُمْلِقِ اهْتَزُّوا بِهِ وَمَدُّوا إِلَيْهِ طَرْفَهُمْ نَظَرًا شَزْرَا[38]

إننا نتمثل حوارية بين البيتين؛ و كأين من بيت المعري يجيب عن حيرة اليوسي، و لكن يترفع بما لديه عن الآخر، أما اليوسي فيَشِي بحقيقة صادفها في فاس هي التقليل من حال شأن الفقير، و من شأنه هو بصفة خاصة.

و من الشعر الأندلسي سجلنا تعالقا بين المعتمد بن عباد في رثائه لنفسه، و بين الشاعر. قال المعتمد:

غريب بأرض المغربين أسير سيبكي عليه منبر و سرير[39]

و قال اليوسي :

أسير بأغمات كأن قد فدي به من احتل في تلك الجزيرة من أسرى
و لم يرث إذ يبكيه فيها سريره و منبره والدهر ما يختشي نُكرا[40]

لا مناص أننا نستشعر توحدا بين النصين في البحر و حرف الروي، كما أن معظم ألفاظ بيت المعتمد حاضرة عند اليوسي الذي وزعها على بيتين:

أسير = أسير/ أرض المغربين = أغمات / يبكي = يبكيه / سرير = سرير / منبر = منبر

و منه اليوسي صيّر معاني و ألفاظ بيت المعتمد مادة طيعة صاغ منها معاني جديدة موازية لحال شيخ الدلاء و «ليس غريبا أن نجد الشاعر يفسح المجال في قصيدته للأصوات التي تتجاوب معه، و التي مرت ذات يوم بنفس التجربة

و عانتها كما عاناها الشاعر نفسه»[41]، وقد نضيف أن الشاعر يرثي نفسه إذا اعتبرنا السرير محل نومه، و المنبر مكان إلقاء خطبه و مواعظه.

و **من العصر الأندلسي** أيضا وجدنا تعالقا بين النص و مرثية بني الأفطس لابن عبدون، و مرثية الأندلس لأبي البقاء الرندي و إذا اعتبرنا اليوسي أساسا لتحديد التناص ألفينا تقاطعا ثلاثيا و تقاطعا ثنائيا.

لعل أول ما شدّ انتباهنا الإيقاع؛ فكل المراثي مطالعها مصرعة ، اختلفت في انتقاء البحر (الطويل / البسيط)، أما حرف الروي فواحد عند اليوسي و ابن عبدون (الراء) مع تباين في الشكل، و مختلف عند أبي البقاء الرندي (النون)، و لكن كلا الحرفين متوسط بيني.

-**التقاطع الثلاثي**: اشتركت المراثي الثلاث في باب الشكوى من الدهر:

قال ابن عبدون :

هَوَتْ بِدَارَا وَفَلَّت غَرْبَ قَاتِلِـه وَكَانَ غَضْبًا عَلَى الأَمْلَاكِ ذَا أَثَـر

وَاسْتَرْجَعَتْ مِنْ بَنِي سَاسَانَ مَا وَهَبَتْ وَلَمْ تَدَعْ لِبَنِـــــي يُونَانَ مِنْ أَثَــر[42]

و قال أبو البقاء الرندي:

دَارَ الزَّمَانُ عَلَى دَارَا وَقَاتِلِهِ وَ أُمَّ كِسْرَى فَمَـــــا آوَاهَ إِيـــــوَانُ

وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَّادُ فِي إِرَمٍ وَأَيْنَ مَاسَاسَهُ -فِي الفُرْسِ- سَاسَانُ[43]

و قال اليوسي :

أَدَارَ عَلَى دَارَا صَرِيفُ صُرُوفِهِ وَأَتْبَعَهُ غَلَّابُهُ المَلِكُ الحَبْرَا

فَأَوْدَعَ ذَاكَ التُّرْبَ بَعْدَ أَسِرَّةٍ وَأَوْدَعَ هَذَا بَعْدَ بِسْطَتِهِ تِبْرَا

وَ نَاوى بَنِي سَاسَانَ فِي غَلْوَائِهَا وَعِزَّتِهَا العُظْمَى فَذَلَّلَهَا قَسْرَا[44]

أولا بالعودة إلى مدلول(أدار على دار صريف صروفه) نجد(أدار) الأولى تعني فعل الزمان السلبي و حدثانه، أما الثانية فتدل على (دارا) آخر ملوك الفرس. و لو أردنا الوقوف عند مصير(دارا) نختزل ما ورد بعده و هو المتعلق

بالدهر المحذوف فنحصل على (هـ و ي)، إذن دورة الزمان نتيجتها (هَوي دارا) التي تحيلنا إلى رائية ابن عبدون (هوت بدارا)، و إذا طبقنا الاختزال على عجز بيت أبي البقاء الرندي (و أين ما ساسه–في الفرس- ساسان) نحصل على (هان)، و إذا قمنا باختزال آخر

(هوى- هان) من خلال إبعاد الهاء القاسم المشترك بين الكلمتين نتحصل على (ناوى) وهي بداية بيت اليوسي (و ناوى بني ساسان...) و لو فتشنا في مرثية الدلاء مليّا سنجد اليوسي دسّ الكلمتين (هوى-هان) في بيت آخر صراحة لا تضمينا .

يقول اليوسي:

وَعَاصِ الهَوَى إنَّ الهَوَانَ مَعَ الهَوَى وَفِي الصَّبْرِ عِزٌّ فَاسْتَعِذْهُ وَلَوْ صِبْرَا[45]

و منه نخلص: التعالق بين المراثي الثلاث كبير يتعدى الجانب الشكلي اللفظي إلى الإختزال الحرفي لشطر بيت من أبيات شاعر يحيل إلى بيت لآخر.

أما التمايز نجده في : قاتل دارا عند أبي البقاء، و ابن عبدون اسم فاعل (قاتله) في حين ورد عند اليوسي صيغة مبالغة (غلاّبه) على وزن (فَعَّال)، و صيغة الفعل عند أبي البقاء (دار) بينما بالغ اليوسي بزيادة الهمزة فأوردها (أدارا). كما أنه فصّل في مصير الملكين المغلوبين من خلال التوازي، بينما أوجز نظيراه.

و منه اليوسي غاير صاحبيه من خلال المبالغة في الاسم و الفعل و التفصيل والتكرار.

-التقاطع الثنائي:

- بين اليوسي و ابن عبدون:

قال ابن عبدون :

أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ لَا آلُوكَ مَوْعِظَةً عَنْ نَوْمَةٍ بَيْنَ نَابِ اللَّيْثِ وَالظُّفْرِ

فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَإِنْ أَبْدَى مُسَالَمَةً فَالبَيْضُ وَالسُودُ مِثْلَ البِيضِ وَالسُّمْرِ [46]

وقال اليوسي:

وَرَامَ اِبْنُ عِبَادٍ بِخَسْفٍ فَنَالَهُ وَأَعْلَقَ مُنْتَاشًا بِهِ النَّابَ وَ الظُّفْرَا[47]

حُسَامٌ إذَا مَا صَمَّمَ الدَّهْرُ فِي امْرِىء غَدَا دَمُهُ بَيْنَ الوَرَى خَضِرًا مُضْرَا[48]

نلاحظ كلا الشاعرين يحدثنا عن رزايا الدهر؛ بحيث شبه ابن عبدون الدهر بالليث، وشبه اليوسي –استنادا إلى شرح الرائية- الدهر بالإنسان.

فالصورة : الدهر = الليث / الدهر = الإنسان.

و لو طبقنا علاقة التعدية نتحصل على الإنسان = ليث. يؤذي بقواطعه كيف لا ؟

و الليث هو الإنسان الذي أسقط الزاوية.

و قال ابن عبدون : الدهر حرب / أما اليوسي: الدهر حسام، كلاهما تشبيه بليغ، المشبه فيه الدهر حاضر في الأول، و غائب في الثاني لتعدد المشبه به، و العلاقة بين الاثنين هي: أن الحسام أداة الحرب التي أسقطت الزاوية.

نستنتج أن اليوسي بدايةً امتص معاني ابن عبدون، و عبر عنها في ثنايا قصيدته، و توافق معه في الصورة مضيفا حذف المشبه، و تخصيص المشبه به (حرب، حسام).

-بين اليوسي و أبي البقاء الرندي:

قال أبو البقاء الرندي:

هِيَ الأَيَّامُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دُوَلٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ[49]

و قال اليوسي :

فَإِنْ سَرَّ فَلْتَظْفُرْ وَإِنْ سَاءَ فَاصْطَبِرْ لِعَوْدَتِهِ فَالدَّهْرُ مَا يَأْلَف الصَّبْرَا[50]

نلاحظ أن البيتين يشكلان حوارية؛ كأن اليوسي يشرح ما بعد إساءة الزمن التي أكدّها أبو البقاء الرندي، و كلاهما جاء باستعارة تشخيصية ألبس فيها الزمن صفات الإنسان.

أما مواطن الاختلاف: في أسلوب الشرط استعان اليوسي بالمقابلة لتبيين مقاصده مغيِّبا الدهر الذي جاء ضميرا مستترا في الغالب، و سجلنا حضوره ظاهرا مرة واحدة، بينما أبو البقاء الرندي اعتمد الطباق، و استحضر الدهر بألفاظ صريحة ظاهرة (الأيام، هي، زمن، أزمان).

كما سجلنا تداخلا آخر بين الشاعرين في التعبير عن سبب أفول نجم المرثي:

قال أبو البقاءالرندي:

أَصَابَهَا العيْنُ فِي الإِسْلَامِ فَارْتَزَئَتْ حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وَبُلْدَانُ[51]

و قال اليوسي:

أَصَابَتْهُمْ عَيْنُ الكَمَالِ فَغَادَرَتْ أَكُفُّهُمْ مِنْ كُلِّ مَا جَمَعَتْ صِفرَا[52]

عبر كلا الشاعرين عن العين التي أصابت المسلمين حتى سقوط الأندلس، والدلائيين حتى انهيار الزاوية، و التي أوصلتهم إلى الهزيمة و الخسران. في حين غاير اليوسي في رسم الصورة البصرية من خلال أنسنة الكمال بحيث جعل له عينا فاعلة، قادرة على الأذية. و قد نص الشرع على العين الحاسدة.

و أخيرا تمكن اليوسي أن يجمع بين النصوص السالفة الذكر لعصور متباينة و أن يكون حاضرا في كل مرة ببصمة مغايرة؛ على صعيد التراكيب و الصورة، والبديع، و حتى توسيع المعاني.

ثالثا: التناص الصوفي.

انفتح خطاب اليوسي على الموروث الصوفي الذي يشكل جزءا مهما من ذاكرته وشخصيته و هو الذي تلقى مبادئ الصوفية مبكرا، فانعكست على نتاجه الشعري.

و من المقولات الصوفية التي آمن بها ، و طبقها في حياته (مداراة الناس صدقة)

لقد امتدح اليوسي (المداراة) في كتابه المحاضرات مستشهدا بموقف الشيخ أبي بكر الدلائي في إكرامه للعكاكزة، و بمداراة الفقير لابن أبي المحلي خوفا من سلطته. كما سلك هذا المبدأ حتى في رسائله الوعظية التي أرسلها إلى المولى إسماعيل العلوي أيام حكمه..

أقدم اليوسي على رثاء الزاوية الدلائية رغم أنها محظور، و ابتغاءً لسلامته لم يصرح بمسمى الزاوية، و لا رجالاتها حتى لا يعتبره المولى رشيد العلوي –الذي أحسن إليه- عاصيا

لأمره، و خارجا عن طاعته. و لن يتمكن المتلقي من كشف خبايا النص و دلالاته ما لم يكن على علم بمناسبتها. فعلا وفق اليوسي في مداراته، و سبيلنا لتأكيد ذلك ما أشار إليه محمد حجي «ظن الأستاذ بيرك أن موضوع هذه الرائية الحكم والتصوف»[53] فاحتمال تأويل مادة المرثية إلى أكثر من دلالة دليل على ذكاء متقد و فطنة مكنت الشاعر من الوصول إلى مقصديته.

و من المقولات الصوفية أيضا «الإعتزال عن الخلق طلبا للسلامة».

نسب للإمام الغزالي –رضي اللّه عنه- أيام سياحته قوله :

قَدْ كُنْتُ عَبْدًا وَالهَوَى مَالِكِي فَصِرْتُ حُرًّا وَالهُوَى خَادِمِي
وَصِرْتُ بِالوحْـدَةِ مُسْتَأْنِسـًا مِنْ شَرِّ أَصْنَافِ بَنِي آدَمِ
مَا فِي اِخْتِلَاطِي بِهِمْ خَيْرٌ وَلَا ذُو الجَهْلِ بِالأَشْيَاءِ كَالعَالَمِ
يَا عَاذِلِي فِي تَرْكِهِمْ جَاهِلًا عُذْرِي مَنْقُوشًا عَلَى خَاتَمِي[54]

نلاحظ من خلال الأبيات أن الغزالي يؤكد انتصاره على هواه، و إيثاره للوحدة على الاختلاط بالآخر، و هي الفكرة التي دارت معاني اليوسي حولها لا سيما حين قال:

وَ خَالِل وَلَا تَكْلِمْ وَجَامِلْ وَلَا تَرمْ وَوَاصِلْ وَلَا تَصْرِمْ وَلَكِنْ خُذِ الحِذْرَا[55]

و من الظواهر الأسلوبية التي تبناها الصوفية في كتاباتهم ذكر أسماء المتصوفة ترميزا، قال الششتري:

وَذَوَّقَ لِلحَلَّاجِ طُعْمَ اِتِّحَادهَ فَقَالَ أَنَا مَنْ لَا يُحِيطُ بِهِ مَعْنَى[56]

وصل الحلاج إلى درجة السكر التي أوصلته إلى الاتحاد بالخالق عز وجل فقال : (أنا من لا يحيط به معنى)، و لما سئل العدول عن قوله أبى، فصلب، يقول علي عشري زايد: «موت الحلاج يثبت عند كثير من المسلمين المتفاوتين في النزعة الصوفية أنه لا بد من التألم من أجل الخلاص، و أن الصلب فداء وقداسة»[57].

بينما استحضر اليوسي من كبار الصوفية: أحمد بن عيسى الخراز، و مالك بن دينار، وسهيل بن عبد اللّه التستري، و بشر الحافي قائلا:

فَكَمْ وَلَهَّتْ فِكْرَ ابنْ عِيسَى وَمَالِك وَكَمْ أَطْرَبَتْ سَهْلًا وَكَمْ أَشْغَلَتْ بِشْرَا[58]

و إذا كان الششتري اعتمد على أقوال الرموز، فإن الرؤيا مغايرة عند اليوسي الذي جمع في البيت المتصوفة ترميزا لعلماء الزاوية الدلائية، و لعل القاسم المشترك بين من ذكروا صفاتهم من ورع، و تقوى، و زهد في هذه الحياة.

و قد نطرح جملة من الاحتمالات إضافة إلى ذلك؛ ربما تكون هذه المسميات كنية الدلائيين فيما بينهم؛ فالحسن اليوسي مثلا كان ينعت بالحسن البصري.

على أننا نقارب اجتهادا من احتمال آخر؛ بعد قراءة المرثية مليا وجدنا أسماء المتصوفة مذكورة في نصها:

أحمد ←يحمد / مالك ←مليك، أملاك... / سهل ← السَّهْل/ بِشر ←البِشْرَا.

قد يكون الأمر مصادفة، و لكن اليوسي لم يتعود اعتباطية المقصدية، يمكننا تفسيرها: (مالك) إشارة إلى الأملاك التي حبست في الزاوية للتكفل بالطلبة مأوىً و تعليماً، و (البِشر): سبيل التعامل معهم، و(سهل): سهلوا لهم سلوك طريق العلم ابتغاء الجنة مصداقا لقول النبي: «و من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة»[59]. أما الحمد؛ فاليوسي يحمد الله عز وجل على مشاركته في هذا الطريق.

و من التناص الصوفي أيضا تغنى اليوسي بالخمر الربانية التي تسكر العارفين و توصلهم إلى الحضرة الإلهية، يقول ابن الفارض:

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الحَبِيبِ مُدَامَة سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الكَرَمُ[60]

أما اليوسي قال:

وَمَشْمُولَةُ صَهْبَاءَ مَا قَطُّ شَابَهَا بِرَوُاقِهِ الحَانِي وَلَا حَلَّتْ القِدْرَا

بِهَا هَامَتْ الأَرْوَاحُ مِنْ قَبْلِ خَلْقِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا وَإِذْ نَبْلُغُ الحَشْرَا[61]

إن ابن الفارض يشير إلى الخمر التي شربها و عرفها قبل أن يوجد الكرم، و هي لا تعصر منه، بينما اليوسي فيهيم بها قبل، و بعد الخليقة.

من خلال ما سبق نخلص أن اليوسي تمكن من تشكيل مرثية مادتها و معانيها نتجت من مجموع رصيده الديني و الأدبي و الصوفي، حاضرا ببصمته من خلال مغايرة كل هذه النصوص، لينتج نصا يوسيا متميزا له خصوصيته؛ جرأة في اقتحام المحظور أدت إلى مداراة في تقديم المعاني. ومحاكاة و تجديد على مستوى الألفاظ و التراكيب و الصور.

الهوامش و الإحالات:

1 - ظواهر أسلوبية في شعر بدوي جيل، عصام شرتح، منشورات إتحاد الكتاب العرب 2005م.ص169.

2 - المرجع نفسه، ص173.

3- التناص الشعري، قراءة أخرى لقضية السرقات، مصطفى السعدني، منشأة المعارف بالأسكندرية 1991، ص88.

4 - النص الغائب تجليات التناص في الشعر العربي، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ،2001م، ص55.

5 - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

6- سورة الفيل الآية (1).

7-النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، لبنان بيروت، ط2 1961م ،ج3 ،ص 900.

8-المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.

9 - سورة الشرح الآية (5).

10 - النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3 ص 900.

11 - سورة يوسف الآية (20).

12- سورة يوسف الآية (6).

13- قصص الأنبياء لابن كثير القرشي الدمشقي (الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان ط1، 1423 ه— 2006م، ص 185.

14- النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3 ص 903.

15 - ينظر وصف إفريقيا، للحسن بن محمد الوزان ، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ،بيروت لبنان، ط1983،2م، ص260.

16-صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد بن الحاج بن محمد عبد الله الصغير الإفراني، تقديم و تحقيق، عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1 1425هـ- 2004م ، ص247.

17- سورة يوسف الآية (53).

18 - النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3 ، ص 902.

19 - المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.

20 - سورة الطلاق الآية (2-3).

21 - النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3 ، ص 904.

22- شرح الأربعين النووية للإمام يحي بن شرف بن حسن بن حسين النووي،الشرح الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد ابن إبراهيم آل الشيخ،تحقيق و عناية عادل بن محمد مرسي رفاعي،دار العاصمة للنشر و التوزيع،المملكة العربية السعودية، ط1431،1 ه-2010 م، الحديث التاسع عشر، ص277 .

23- النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج3، ص 901.

24 - سورة البقرة. الآية (214)

25 - ينظر شعر زهير بن ابي سلمى دراسة أسلوبية، أحمد محمد علي محمد،أطروحة دكتوراه، جامعة الموصل، 1426هـ-2005م، ص34.

26- شرح المعلقات العشر المذهبات لابن الخطيب التبريزي (الامام زكريا يحي بن علي بن محمد الشيباني) ضبط و تعليق عمر الفاروق الطبّاع، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت -لبنان، ط1، ص139.

27 - النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج3، ص 903.

28 - المصدر نفسه، و الصفحة نفسها.

29 -ديوان الخنساء، دراسة و تحقيق إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، ط1 1405ه-1985م.، ص83.

30 -النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج3،ص893 .

31-دينامية النص، محمد مفتاح ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط3، 2006 م، ص27.

32-ديوان المتنبي. دار بيروت للطباعة و النشر بيروت 1403 هـ - 1983 م ، ص385.

33 - المرجع نفسه، ص388.

34- المرجع نفسه ،و الصفحة نفسها.

*الشجرة الخضرا لقيها اليوسي في سلجماسة، و ذكر في كتاب المحاضرات أنها دائمة الخضرة، ينثر الناس حولها الدراهم تبركا، أقدم الشيوخ على قطعها خوفا من تطور الاعتقاد بها. و هي بمواصفاتها رمز لزاوية الدلاء.

35 - شرح ديوان أبو فراس الحمداني، شرح و تعليق عباس إبراهيم، دار الفكر العربي بيروت، ط1، 1994، ص110.

36- النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج3، ص895.

37- سقط الزند، أبو العلاء المعري،دار بيروت للطباعة و النشر،1374 ه-1957 م،ص 196.

38- النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3، ص901.

39 34- ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، جمع و تحقيق أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، أشرف عليه و راجعه الدكتور طه حسين باشا، المطبعة الأميرية بالقاهرة 1951م ص98.

40 - النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3، ص895.

41 - الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية و المعنوية،عز الدين اسماعيل دار العودة بيروت و دار الثقافة،ط1981،3 م ص307.

42- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1411ه-1997 م، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص721.

43-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني،تحقيق إحسان عباس،دار صادر بيروت،ج4 ،1408 ه-1988 م ،ص487.

44- النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج3، ص898.

45- النبوغ المغربي، عبد الله كنون،ج3 ،ص902.

46- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام، ص721.

47-النبوغ المغربي، عبد الله كنون،ج3،ص899

48- المصدر نفسه، ص 897.

49-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقري، ص487 .

50- النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج3، ص 900.

51- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، للمقري، ص487 .

52- النبوغ المغربي، عبد الله كنون، ج3، ص894.

53-الزاوية الدلائية و دورها الديني و العلمي و السياسي، محمد حجي، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط2 1409هـ- 1988م.، ج1، ص354.

54-المحاضرات في الأدب و اللغة، الحسن اليوسي، تحقيق و شرح محمد حجي و أحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1402 هـ - 1982 م، ج1، ص 354.

55- النبوغ المغربي، عبد الله كنون،ج3 ،ص 901.

56- ديوان الحسن الششترى، حققه و علق عليه الدكتور علي سامي النشار، منشأة المعارف الإسكندرية، ط1 ،1960م، ص75.

57- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1447ه-1997م، ص110.

58- النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3 ص897.

59- شرح الأربعين النووية، للنووي، الحديث التاسع عشر، ص277.

60- ديوان الإمام العارف بالله تعالى سيدي الشيخ عمرابن الفارض، المطبعة الحسينية المصرية، ط1 ،1331ه-1913م، ص82.

61- النبوغ المغربي، عبد الله كنون. ج3 ص 896.